في ذاكرة الزمان و المكان (٥)

في القدس ضاعت «أفتي»

الكاتبة

روضة الفرخ الهدهد

رسوم الفنان : فايز الشروف

دقق النص الأستاذ : محمد عواد

مقدمة

ظلّ وسيظل حق العودة لفلسطين حقاً لكل فلسطيني وفلسطينية ترك أرضه قسراً وظلماً عندما احتلها اليهود الصهاينة ..

كما ظل حلم العودة عند الأخوات : إزدهار «إزدي» وافتخار«أفتي» وانتصار «أنجي» يراودهن للعودة إلى فلسطين ، حتى بلغن السبعينيات من العمر فلما سافرن لفلسطين لزيارتها قابلهن الرجل الغريب مع أكواب سحرية وعصير برتقال سحري حيث عدن إلى عمر الطفولة ؛ فزرن مدن فلسطين السليبة : « يافا ، عكا ، حيفا ، القدس ، الناصرة ، اللد ..» كما كن يزرنها من قبل .

فمن كان هذا الرجل الذي يسحبهن أو يتبعهن إلى هذه المدن ؟! وما دور القطة السوداء في رحلة الفتيات العجيبة ؟!

تلك حكايات: «من ذاكرة الزمان والمكان» ، وذلك مشروع : «هذه مدينتي»...

روضة الفرخ الهدهد


محطه قطار بتير
* يافا * القدس * يافا *



بسم الله الرحمن الرحيم

في سعادةٍ غامرةٍ ، صَعدَتِ الفتياتُ الثّلاث «إزدي» و «أفتي» و «أنجي» عرباتِ القطارِ المتّجةِ من يافا إلى القُدسِ ركَضت الفتياتُ داخلَ العرباتِ من عربةٍ إلى عربةٍ .. وتصاعدت ضحكاتهنّ تملأُ الأجواءَ وهُنَّ ينتقيْنَ المقاعِدَ ، ولكنّ صوتَ الرجلِ الغريبِ أوقفَ ضحكاتِهنَّ دفعة واحدةً ، عندما أمرَهُنَّ بالتوقفِ والجلوسِ حيثُ يُشِيرُ!!

وتحرَّكَ القطارُ ببطءٍ في باديْ الأمرِ، ثمّ بسرعةٍ كادتْ تقْذِفُ بالبناتِ من مقاعِدهنّ، وبعد فترةٍ وجيزةٍ نظرتْ «أفتي» حَوْلها فلمْ ترَ الرّجلَ ، فقامتْ بهدوءٍ منْ مقعدِها واتّجهَت إلى عربةٍ أخرى وجلستْ وحدَها بعيدةً عنْ أختيْها. وما إنْ مدّت يَدها في جيْبِ المقعدِ حتى وجدتْ كتابًا مصوّرًا يبدو أنَّ أحدًا وضَعهُ أو نسِيَهُ في القطارِ ..

كانَ كتاباً ملوّناً مُزخرفًا ، أوراقُهُ مصقولةٌ، وصورُهُ جميلةٌ ، وخطوطُهُ واضحةٌ ، فأخذتْ تلتَهمُهُ بعيْنيْها تُقلّبُ صفَحاتِهِ على عجلٍ ، وتقرأُ عناوينه بسرْعَةٍ ، ولكنّها سُرعان ما انسَجَمتْ بقراءتِهِ حتى نَسيتْ كلّ مِن حولِها..

كانَ الكتابُ يتحدّث عن القدسِ . وكانتْ هيَ أحوجُ ما تكونُ لمعرفةِ تاريخَ وحاضِر هذِهِ المدينَةِ التّي يَذهبُون إليْها ولمَّا توقّفَ القطارُ في أولِ محطّةٍ في قريةِ «بتّير» لمْ تتحرّك « أفتي» مِن مكانِها ، فقدْ كانَ انسجامُها في القراءةِ عظيمًا، فلمّا وصلَ القطارُ محطتهُ الأخيرةَ في القدسِ، أخفتْ الكتابَ في طياتِ فُستانِها، وقدْ وضعت في رأسِها خُطةً مُحْكمة لتتحرَّكَ في القدسِ كما تريدُ هيَ وليسَ كما يريدُ الرجلُ الغريبُ !

نزَلَ جميع الرُّكاب من القطارِ، واختبأتْ «أفتي» بهدوءٍ قربَ أحدِ المحلاتِ تُراقبُ أختيْها وهما تمشيانِ بسرعةٍ خلفَ الرّجل دونَ أن ينتبهَ أحدٌ منهم إلى غيابها!

في ثوانٍ ، خلتْ ساحةُ محطّةِ القطارِ من الرُّكابِ ، واختفى الرجل وأختاها عن نظرِ «أفتي» ، ووقفَتْ وحيدَةً في


في
مسجد
الأقصى

المحطَّـةِ تتَحسّـسُ كتابَهـا وتُفكِّـرُ بخطتِهـا.

لمْ تكـدْ «أفتـي» تمـشي خطـواتٍ حتّـى أحسَّـتْ بحركـةٍ بـيْن قدميْهـا ووثـبَ قلبُهـا مـن صدرِهـا، ثـمّ نظـرَتْ فـإذا القطـةُ السـوداءُ تَقـتربُ منهـا وتَتَمسّـحُ بهـا ، ونسـيَتْ «أفتـي » خوفَهـا مـن القطـطِ ، فأقبلـتْ عليهـا تُحسِّـسُ هـي الأخـرى عـلى فروتِهـا ، وكأنّهـا وجـدتْ صديقًـا لهـا في وحدتِهـا ، ومشـتْ الإثنتـان إلى المـكانِ الـذي حَدّدتْـهُ « أفتـي» قـربَ قبَّـةِ الصخـرةِ الملونـةِ الجميلـةِ.

كانَ الكتـابُ الـذي بيدِهـا هـوَ دليلُهـا : «كنعـانُ وحنظلـةُ في نفـقِ المسـجدِ الأقـصى»[1] فـأرادتْ أن تمـشي عـلى خُطـاه لتعـرِفَ تاريـخَ هـذِهِ المدينـة مُنـذُ بناهـا العـرَبُ الكنعانيـون قبـلَ خمسـةِ آلافِ سـنةٍ إلى أنْ دَخلهـا «الاسـكندرُ الأكـبرُ المقـدوني» ، ومـشى عـلى أرضهـا سـيدنا عيـسى عليـه السـلام ، وأُسرِيَ بالرّسـولِ مُحمّـد صـلى اللـه عليـهِ وسـلّم مـن مكّـة المكرّمَـة إلى مَسْـجدِها ، ثـمّ فتَحَهـا «عُمـرُ بـنُ الخطّـابِ»، وحرّرهـا «صـلاحُ الديـنِ الأيّـوبيِّ» مِـنَ الصليبيّـين، تاريـخٌ طويـلٌ عريـضٌ قرأَتْـه مِـنْ قبـل ومـن بعـد ، وهـيَ سـتراهُ في رحلتِهـا وحدَهـا .

فَهَلْ ستجدُ ما قرأَتْ وعلِمَتْ ؟

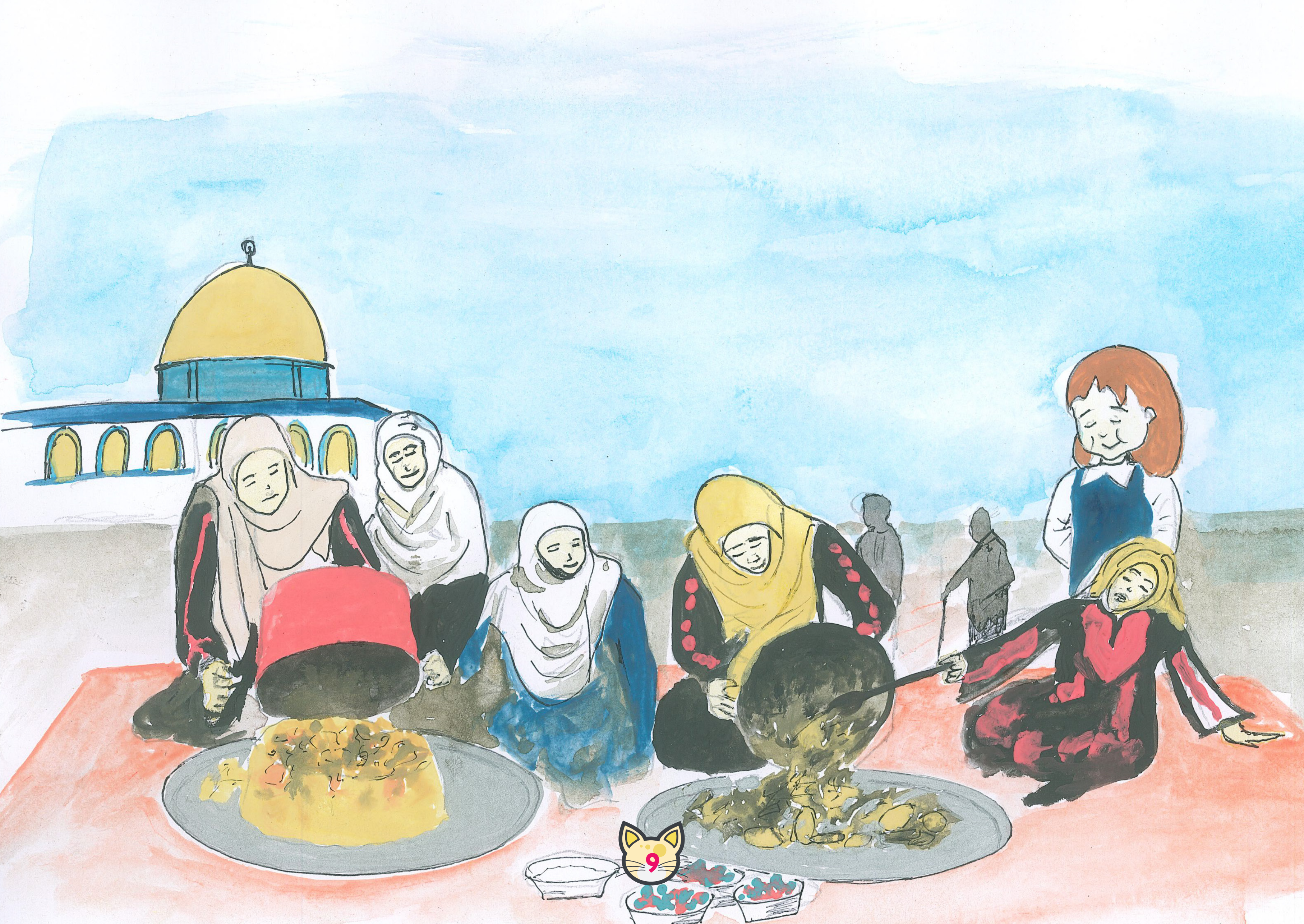
نزلـتْ «أفتـي» إلى أوّلِ نفـقٍ رأتْـهُ قريبًـا مِنْهـا ، فلـمْ تجـدْ داخِلَـه أيًّـا مِـنْ هـذا التاريـخِ أبـداً .. لقـدْ وجـدَتْ تاريخـاً آخـرَ غريبـاً لا يتحـدّثْ إلّا أنّ هـذا المـكان لليهـودِ وليـسَ لأحـدٍ غيرهـم !! الحجـارةُ لهـم ، الأسـماءُ لهـم ، الأدراجُ لهـم ، المبـاني لهُـم القديـمُ والحديـثُ والتاريـخُ والجغرافيـا والآثـارُ لهـم ، لهـم وحدهـم !!

1- كتاب للأطفال بعنوان : كنعان وحنظلة في نفق المسجد الأقصى للكاتبة روضة الفرخ الهدهد صدر عام (1999م)





وانقبضَ قلبُ «أفتي» ، فأيْنَ هيَ الحقيقةُ إذن وأينَ هُمُ العربُ في القُدسِ ؟
تركتْ «أفتي» النفقَ ، وصعدتْ إلى ساحةِ المسجدِ الأقصى وقلْبُها حزينٌ للغايةِ على ما شاهدتْ .. جلستْ في زاويةٍ من زوايا السّاحةِ ، وقدْ أخذَ الجوعُ والتعب منها جانِباً منْ التّفكيرِ ، فماذا ستأكُلُ وماذا ستعملُ ؟
وبينمَا هي ساهمةٌ إذْ بها تسْمعُ أصواتَ نسوةٍ يقترِبْنَ منها فأوْجسَتْ مِنهنَّ خيفةً.. هلْ هنَّ نساءٌ عربياتٌ أمْ يهوديَّات ؟ لقد اختلطَ عليْها الأمرُ هلْ هيَ في منطقةٍ عربيّةٍ إسلاميّةٍ أمْ يهوديَّةٍ صَهْيونيّةٍ ؟
جلستِ النّساءُ في صفوفٍ مُنتظِمةٍ ، وبدأتْ إحداهُنَّ تقرأُ القرآنَ بصوتٍ رخيمٍ.. إذنْ هنّ عربيَّاتٌ مسلماتٌ ؛ فارتاحَ قلبُها ..واقتربتْ مِنهنَّ .
كانتْ تقترِبُ منهنَّ وتقرأُ معهنَّ القرآنَ بسرِّها، فهيَ تحفظُ القرآن منذ طفولتِها ، والدُها علّمها القرآنَ آيةً آية ..
فلِمَ لا تردّدُ معهنّ ؟
بعد مدة سمعتْ إحداهُنَّ تُنادي على زميلتِها : يا أخْتي خديجة تعالي هُنا .. والأخرى تقول لصاحبتها : أختي زينة أينَ أكوابُ الماءِ ؟ .. لقد أنهينا الصلاةَ وقراءةَ القرآنِ وحانَ الآن دَوْرُالأكل .
لمْ تصدّقْ « أفتي» أنفها، ولا صدّقتْ عيْنيْها عندمَا شمَّت رائحةَ الأكلِ و رأتْهُ في الصواني في ساحةِ المسجدِ الأقصى !!
لقدْ التفّتِ النّساءُ في دائرةٍ وفَرَشْنَ الأرضَ بشرشفٍ بلاستيكيٍّ ، وحمَلتْ ثلاثةٌ من النِّسوةِ طناجرَهنَّ ، وسكبْنَ ما فيها من ورقِ العنبِ والمقلوبةِ في الصواني وَوضعْنَ قُربها اللبنَ والسلطةَ !
كادتْ «أفتي» يُغمى عليْها منَ الدّهشةِ والحيرةِ، فهيَ في أوْجِ جُوعِها وعطشِها وترى الأكلَ أمامَها. ولكنّهُ لهنَّ وليسَ لها ، فماذا تفعلُ ؟



لم تكدْ تُفكرُ حتى اقتربَتْ مِنها إحداهنّ ، لعلّها خديجةُ .. تقولُ :
- تَفضلي يا أخْتي . بلْ يا بنيّتي ، تفضلي شاركينا الأكل.
كادَ الدّمعُ يطفرُ من عيني «أفتي» ، فهي حقاً جائعة ، ولكنّها خجِلةُ وغريبةُ عنهنّ . وأقبلتْ أخرى : لعلّها زينةُ ، تحملُ كوبًا منَ الماءِ وكوبًا مِنَ اللبنِ تُعطيهِ «أفتي» قائلةً :
- تفضلي شاركينا الأكلَ . مِنْ أينَ أنتِ أيّتُها الفتاةُ ؟ لستِ مِنَ القدْسِ ، أليسَ كذلك ؟ هلْ أنتِ مسلمة ؟ إنْ كنتِ مسيحيَّة منْ «بيت لحِم» أو «نابلس» فأهلًا وسهلاً بكِ . فنحنُ جميعنا عربٌ مِنْ فلسطين .. وكلّ أهل فلسطينَ هم أخوَتُنا وأخواتنا.. تعالي .. تفضّلي .
أخذتْ «أفتي» طبقَ الأكلِ وكأسَ اللبنِ ، ولمْ تكدْ تأكلُ بعضًا من اللُّقيْماتِ حتى أحسّتْ بالسعادةِ لوجودِ هؤلاءِ الأخواتِ قُرْبها تُحدِّثهُنَّ و يحدِّثنَها عن نشاطاتِهنَّ ولماذا يأتِيْن للساحةِ كلّ يومٍ .
قالت خديجةُ :
- نحنُ وعشراتٌ غيرُنا منَ سيداتِ القدسِ نأتِي يوميًّا إلى المسجدِ لحمايتِهِ .
قالتْ «أفتي» :
- حمايَتُهُ مِمَّن ؟
وضعت خديجة يديها على ظهرِ «أفتي» بحنانٍ ، وقالتْ:
- حمايتِهِ مِنَ المُحتلّينَ اليهودِ الصهاينةِ الذينَ يُريدونَ تغييرِ هذا المسجدِ الإسلاميِّ إلى كنيسٍ يهوديٍّ . هلْ رأيتِ النفقَ



تحتَ هذا المسجدِ؟

- نعمْ رأيتُهُ.

- فتحوا النفقَ، بل أنفاقًا تحت هذا المسجدِ ، وزَرَعوا فيها حِجارةً قديمةً كتبُوا عليها كِتاباتٍ قديمةً تشيرُ إلى أنّ هذا المكانَ لهُم .

- نعمْ رأيتُ هذا وعَجِبْتُ منهُ !

- منذُ احتلّوا القدسَ وهُم يحاولونَ تغييرَ تاريخها ولكنَّنا نقِفُ لهُم بالمرصادِ، نحنُ كلّ أبناءُ القدسِ وكُلُّ الفلسطينيين والعربِ و المسلمين نقِفُ لهم بالمرصادِ.

قامت خديجةٌ تجمعُ بواقيَ الأكلِ و تُنظِّفُ المكانَ ، وما كادتْ تقولُ «الله أكبر» حتّى انطلقَتْ حناجِرُ باقي الفتياتِ بالتكبيرِ بصوتٍ عالٍ يكادُ يصلُ عنانَ السماءِ، «الله أكبر» «الله أكبر « «الله أكبر» .

ولمْ يكدْ يرتفعُ صوتُ التكبيرِ في الساحةِ حتّى دخلتْ مجموعةٌ من رجالِ الجيشِ الاسرائيليِّ، وأخذُوا يُهاجمونَ السيداتِ ويَقلبونَ صَواني الأكلِ على الأرضِ ، ويدُوسون على القرآنِ الكريمِ ، بل ويعتقلونَ السيداتِ ، ثوانٍ مرّت وكأنّها ساعاتٌ ، و «أفتي» تُحاولُ الابتعادَ عن السيداتِ المرابطاتِ وتتقي ضرباتِ جنودِ الاحتلالِ ولمْ تستَطِعْ .

ثوانٍ وكانتْ السلاسلُ في يديْها مع حوالي عشر سيداتٍ مِمَّن حاولنَ مُجابهَةَ قواتِ الاحتلالِ ، دقائقُ وكانتْ سياراتُ الجيشِ تحْمِلُهُنَّ جميعاً إلى السِّجنِ !!

أشارتْ «أفتي» إلى القطَّةِ كأنَّها تستَنْجِدُ بها ، ودارتِ القطّةُ السوداءُ حول نفسها عدّةَ مراتٍ ثمّ قفزتْ إلى الشارعِ

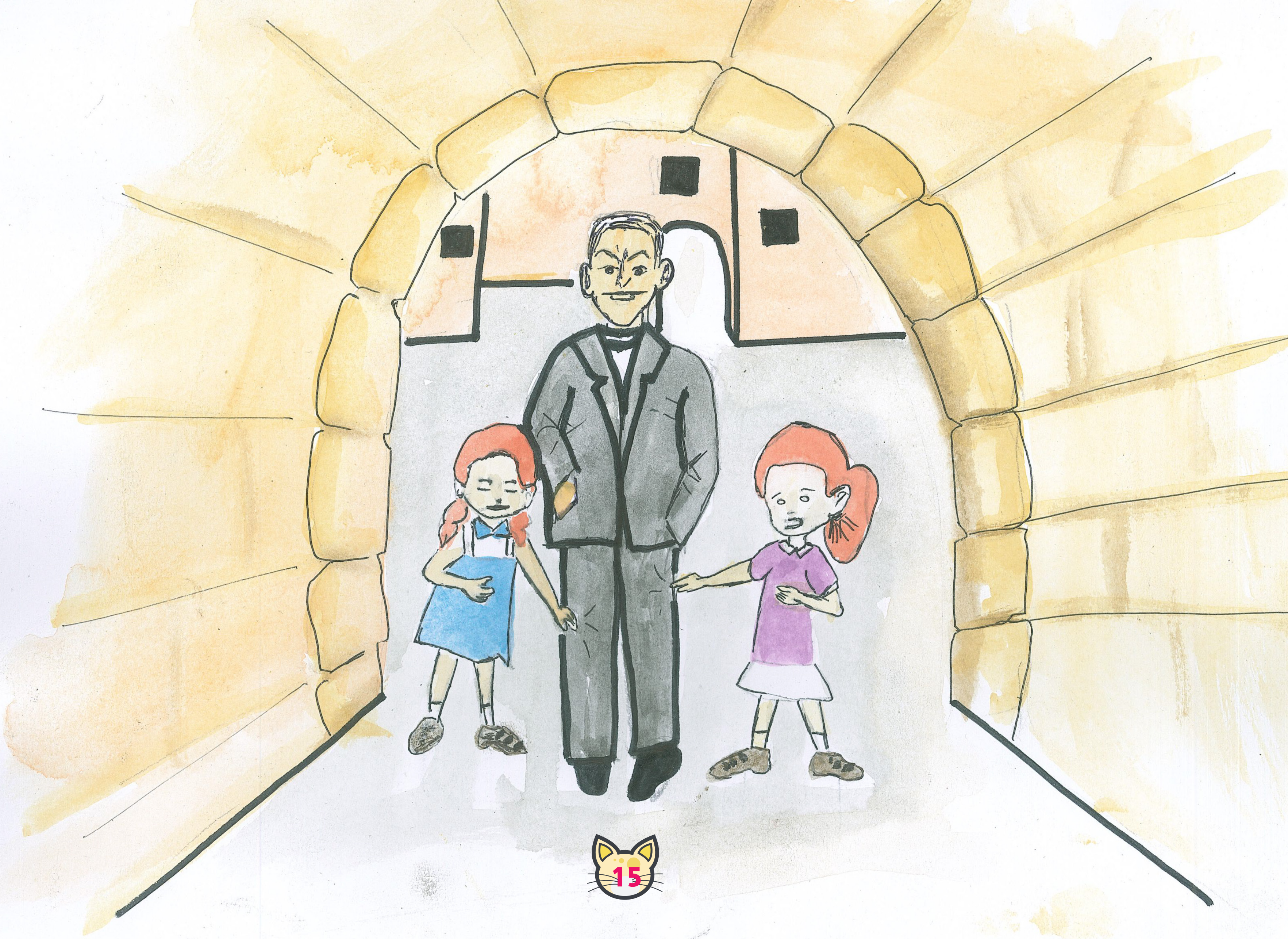

حرية
ما بعد الضيق الا الفرج

وهـيَ تمـوءُ مُـواءً عاليًا.
في السَّجنِ سَـمِعَتْ «أفتـي» مـا لمْ تسْـمَعْهُ طـوالَ عُمُرِهـا... وأحسَّـتْ بمـا لمْ تُحـسُّ بـه طـوالَ عمرهـا أيضًـا ، وتعلَّمـتْ مـا لمْ تتعلَّمْـه مِـنْ قبـل ، في السـجنِ أحسّـتْ «أفتـي» مـا معنـى التعذيـبِ والـضَّربِ والإهانـةِ ، فهمـتْ مـا معنـى الأسـيراتِ والمرابطـاتِ(2). في السـجنِ عرفـتْ أهميَّـةَ الشـمسِ و الضـوءِ و الحريّـةِ في حيـاةِ الإنسـانِ؛ كانـتْ في السـاعاتِ التـي لا يسـتجْوِبُها السـجّانونَ الإسرائيليُّـون أويضربونَهـا تسـتَمِعُ للسـيداتِ؛ خديجـة و زينـة و آيـة يحدّثنهـا عـن المسـجدِ الأقـصى وحبّهـن لـهُ ودفاعهُـنَّ عنـهُ، وعـن محـاولاتِ جنـودِ الاحتـلالِ والمسـتوطنينَ الإسرائيليـين سرقـةَ مـا للعـربِ في القـدسِ و طـردِ أهلِهـا و الاسـتيلاءِ عـلى بُيوتِهـم ومحلّاتِهـم و مسـاجِدِهِم وكنائِسِـهم.
سألتْ «أفتي» كثيرًا وأجابتْها السيداتُ كثيرًا فأحبّتْ القدسَ وكرهَتِ الاحتلال.

****

فجـأة وقفـتْ «إزدي» تنظُـرُ قُرْبهـا يَمينـاً وشِـمالاً ، وخلفهـا ، وفي كلِّ الجهـات تبحـثُ عـنْ أختِهـا طبعـاً .. أيـنَ هـيَ ؟ لمـاذا تأخـرّتْ ؟
توقّفـتْ «أنجـي» أيضـاً ، وأمسـكتْ بمعطـفِ الرّجـلِ كأنّهـا تبحـثُ فيـهِ عـن أختِهـا « أفتـي».. ولكـنّ الرجـل لمْ يهتـمّ بهـا ، وواصـلَ سـيرَهُ الحثيـثِ .
لحقتِ الفتاتان بالرّجلِ تُمسكانِهِ منْ ملابسِهِ بإصرارٍ وشدّةٍ، فاستدارَ بعنفٍ، ليسمَعَ صراخَهُما معاً ..
- «أفتي» أختنا غير موجودة !!

٢- (المرابطات: سيدات من القدس يرابطن حول المسجد الأقصى ، أكثرهن شهرة: خديجة خويص ، زينة عمرو ، نور محاميد، آية أبو ناب ، والحاجة نفيسة خويص وغيرهن.



نظر الرجلُ حولَهُ ، ثمّ قالَ بحزمٍ :

- نذهبُ الآن إلى الأماكنَ المقدّسةِ في القدسِ، وحتماً سَنجدُهَا في أحدِ هذه الأماكن ، فأينَ ستذهبُ مثلاً ؟ هيّا .. تحرّكا

تحركتِ الفتاتانِ مع الرجلِ تبحثان عن أختهما في الأماكن المقدسة في القدس، دخلُوا كنيسة القيامة .. ما أروعَها ومَا أجملَ بناءَها ! قرأوا على البابِ معلوماتٍ كثيرةً عن أهميّةِ كنيسةِ القيامةِ في حياةِ مسيحيي العالمِ ، منذ بَنَتْها الإمبراطورةُ «هيلانة» وإلى اليوم . علموا أنه عندما اختلفت الطوائفُ المسيحيةُ بشأْن مَن يفتَح الكنيسة ومَن يُقْفلها، قرَّرَ الحاكمُ في حينِها أن يُسلّم مفاتيحها لأهمّ عائلتيْن في القدسِ .. عائلتينِ مسلمتيْنِ هما عائلة نسيبة و عائلة جودة لا زالتا حتّى يومِنا هذا تحمِلانَ مفاتيحِها.

قرأتِ الفتاتانِ ما هوَ مكتوب ، وسَمِعَتا الكثير مما قيل عن الكنيسة وقبر سيدنا عيسى عليه السلام ، وأماكن إضاءة الشموع . سمعتا عن المتاعبِ التي يعيشُها مسيحيّو القدس منذُ الاحتلالِ الاسرائيليّ، حيثُ تُقفِلُ الشرطة الإسرائيليةُ أبوابَ الكنيسةِ ضدّ المسيحيِّين عندمَا تُريدُ ، وتفتحها عندما تريد . مُضايقاتٌ كثيرةٌ بحجةِ الضرائبَ وغير الضرائب، ولكن مسيحيّو القدس متمسكون بكنيستهم ضد كل محاولات المحتلين لاقفالها .

ومع جمال وأهمية ما كانت الفتاتان تشاهدان، إلا أن عقلهُما كان مشغولاً بالبحثِ عنْ أختهمَا . لعلها هنا أو هناك ..

وعلى بعد مرمى حجر ، شاهدت الفتاتان مسجد عمر بن الخطاب ، لقد كان القائدُ عمرُ في هذه الكنيسة يشاهدها عندما فتح القدس، وعندما حان وقت الصلاة، لم يقبل أن يصلي داخل الكنيسة ، فالمسلم لا يضايق المسيحي في دينه.. لذا رمى حجراً من نافذة الكنيسة ، ثم صلى حيث وصل الحجر!! وهناك بنى المسلمون جامع عمر !!



يا الله ما أجمل هذا التعايش الديني !

مشت الفتاتان في « طريق الآلام» وشاهدتا «كنيسة الجثمانية» الرائعة ، وعلى بعدِ 500 متر تقريباً شاهدتا سورَ المسجدِ الأقصى .. لاحظتا سور المسجد الجميل وأبوابه العشرة ، ونوافذهُ الملونة ، فكاد قلبهما أن يتوقف لجمال المنظر.. ولما وصلتا باب العامود ، دخلتا إلى الأسواق الشعبية .

تساءلت «إزدي» :

- هل تكونُ أختُنا هنا في السوق؟ إنها تحبُّ الأسواقَ ، فهل تكونُ هنا يا ترى؟ ما أجمل الأسواق في داخلِ القدس ! وما أمتع المشي فيها، إنها تنسي المرء أي شيء !!

تذكرتْ «إزدي» زيارتها الأولى للمسجد الأقصى مع والدها .. تذكرت رائحة البخور والبهاراتِ المختلفةِ في سوقِ العطّارين تذكرتْ روائحَ العطورِ وكيف يضعُ البائعُ العطرَ في زجاجاتٍ صغيرةٍ دون أن يُسقط منها نقطة واحدةً .

مرّتا من «سوقِ النحّاسين» و «سوق الجزّارين» و «سوق الخواجات» ، ملأتْ أسماعهما أصواتَ البائعين يعلنونَ عن بضائعِهم وأسعارِها .. كان إحساسًا رائعًا جميلاً ، فالبضائعُ الملونة تملأُ المكان . وكلُّ ما يحتاجُهُ السائحونَ من ذكرياتٍ عن القدسِ ومقدساتِها متوفرٌ وقد نُقش على خشبِ الزيتونِ وشُكّل بالصدفِ..

رأت الفتاتان بائع الكعكِ بالسمسم ، وتسربت رائحة الفلافل المقلية إلى أنفيهما ، فأثارت الرائحة في نفسيهما احساساً رائعاً من الحُبِّ والسّعادة . ولكن «إزدي» وقفت فجأة أمام امرأة ريفية تجلس قربَ طبقٍ من القشِّ الملوّن ، وعليه



خضار من البندورة والفجل وورق العنب .. لم تصدِّق عينيها .. كأنها تعرف المرأة من قبل ، تعرفها حقاً ؛ تعرفها ، اقتربت منها وسألتها :

- مَنْ أنتِ ؟

دُهشِت المرأةُ الفلّاحَةُ ، فهي تبيعُ الخضارَ ولا يسألها أحدٌ عن اسمها أو من هي؛ قد يسألونَها عن سعر الخضار ولكن ليسَ عنها شخصياً ؛ ومع ذلك فقد قالت:

- من أنا ؟ أنا من هنا ، أبيعُ منتوجاتِ مزارعنا ، لي في هذا المكان ما لا يقل عن ستين عاماً ، منذ كنت طفلة مع والدتي ونحن نبيع في هذا المكان .

وسَرحَت «إزدي» في خيالها ؛ إذن هي ، هي التي أعرفها ، هي التي رأيتُها عندما كنتُ مع والدي ،لاتزالُ تبيعُ خضارَ بلادِنا ومزروعاتِ أراضِينا.

أرادت «إزدي» أن تنحني على السيدةِ الفلاحةِ وتقبّل يدَها ، هي الصّامدة على هذه الأرضِ منذ عشرات السنين ، وهي التي ستظلُّ صامدةً لمئات السنين .

أفاقت « إزدي» من سرحانها ؛ وقد سمعت ضجةً وصراخًا ، فقد جاء عشرات من الجنود الاسرائيليين يطردونَ البائعات قلبوا أطباقَ القشِّ وداسوا على الفجلِ والبصلِ والثومِ والبندورةِ ، فقامتِ السيداتُ يدافعنَ عن أطباقهنَّ ومنتجاتهنَّ.

سمعتْ «إزدي» السيدةَ الفلاحة تقول بصوت عالٍ:



- حـرام عليكـم .. نتعـبُ ونحـنُ نـزرع .. ونتعـبُ ونحـنُ نجنـي ..ونتعـبُ حتّـى نصـلَ هنـا ، كنـا نصـلُ في خمـسٍ أو عـشرِ دقائـق ، والآن وبفضـل جداركـم العنـصري نقـضي أربـعَ سـاعات لنصـل .. اللـه عليكـم ، اللـه يحرقكـم .. اللـه ينتقـم منكـم.

خافتْ «إزدي» ولم تقفْ لتسمعَ ما يجري ، فتركت المكان ركضًا ، أمسكتْ يدَ أختِها وأسرعتْ مبتعدةً عن المكانِ ..

فهي لا تريدُ المشاكل ، تريدُ العثورَ على أختِها «أفتي» فقط.

جلسـتْ «إزدي» وأختهـا عـلى الـدّرجِ المطـلِّ عـلى قُبّـةِ الصخـرةِ المشرفـةِ .. كانَ المنظـرُ رائعـاً حقًّـا ، قبـةُ الصخـرةِ تلمـعُ في الفضـاءِ بلونِهـا الذهبـيِّ الرائـعِ .. والبنـاءُ الثـمانيّ حولهـا يشـعُّ بألوانِـهِ الفيروزيَّـةِ الجميلـةِ المذهلـةِ التـي تخلـبُ الألبـابِ.. كادت تنـسى أختَهـا الضائعـة وتنـسى نفسَـها وتنـسى الدّنيـا حولَهـا .. فالمنظـرُ أكـثرُ مـن بديـعٍ ورائـعٍ ؛

فجـأة أحسـت بـين قدميهـا بفـروٍ ناعـمٍ ، وإذا بهـا القطـةُ السـوداءُ تمـوءُ مـواءً عاليًـا.. أحسّـتْ أنَّ الأمـرَ لـه علاقـةٌ بأختِهـا فالقطّـةُ تحـاولُ أن تخبرَهـم أمـرًا مـا .. فأيـنَ هـي أختهـا ؟

اقـتربَ الرجـلُ ذو العينـينِ السـوْداويْن مـن الفتاتـيْن قائـلاً: نعـم .. القطـةُ تحـاولُ أن تُخبرَنـا عـن مـكان «أفتـي» ، سـآخذكُم الآن إلى البيـتِ ، وسـأذهبُ وحـدي لأحْـضِرَ أختُكـما .. أعتقـدُ أننـي أعـرفُ أيـنَ هـي .. هيَّـا بنـا.

وصلـتْ الفتاتـانِ إلى بيـتِ عمَّتهـما «رؤوفـة» . بيـتٌ كانتـا تعرفانـه حـقَّ المعرفـةِ ، «فـأزدي» لم تنـسَ الأدراج الموصلـةَ للبيـوتِ المُطلّـةِ عـلى المسـجدِ الأقـصى .. ولمْ تنـسَ البيـوتَ القديمـةَ المتلاصقـةَ المطلـةَ عـلى المسـجدِ .

بالحـبِّ والحنـانِ أنزلـتْ عمّتُهـما «رؤوفـة» الوسـائدَ والشراشـفَ والأغطيـةَ عـن «ركـزةِ الفرشـات » ووضعتْهـا عـلى الأرضِ ، نظـرتْ «إزدي» إلى «الرّكـزة» وقالـت في نفسـها :



- نعم هي «الرّكزة» التي كانت تُعجبني لحسنِ ترتيبِها وكأنّها على المسطرةِ ، تضعُ فيها عَمّتي الفرشات والوسائد للضيوفِ .. الضيوفِ من أقاربِها ؛ فكلُّ عائلةٍ في القدسِ تَستقبلُ أقاربَها للصلاةِ في المسجدِ الأقصى ؛ خُصوصًا في شهرِ رمضان المبارك ، فتكونُ هذه «الركزة» جاهزةً لاستقبالِهم . كانوا ينزلون الفرشاتِ ويتربّعون جلوسًا عليها، بلْ إنّها تذكرُ منقلَ الفحمِ الذي يجلسونَ حولَه في فصلِ الشتاءِ ، وإبريقَ الشايّ يغلي على الفحمِ ، والخبز يحمّصونه على النار ليأكلوه مع الجبنةِ والزيتون !!

نامَ الجميعُ قربَ بعضِهمْ البعض، بانتظارِ عودة أختهن «أفتي» . لكن هل ناموا حقاً ؟

لمْ تنمْ الفتياتُ ولا عمّتهم وهي تحدِّثهن عن المشاكلِ التي تُعانيها هي وسكان هذه البيوت مِنَ المُحتلين الاسرائيليين للاستيلاءِ على بيوتهم ! نعم سرقةِ بيوتِهم وطردِهم منها إلى لا مكان . حتى كادتْ قلوبُهم وحناجِرُهم تنفجرُ من الأسى والحزنِ على أبناءِ القدسِ مسلمينَ ومسيحيين .

****

فجأةً ظهرَ الرّجلُ ذو العينيْنِ السوداويْن في السّجنِ ، فلمّا رأتْهُ «أفتي» يَدخلُ مع السّجانِ لغرفةِ السّجنِ ، فوجِئتْ وتراجعتْ إلى الوراءِ خائفةً مرعوبةً ، كانَ معَهُ ثلاثةٌ مِن جنودِ الاحتلالِ ؛ فتحُوا الغُرفةَ التّي تَنامُ بها «أفتي» معْ المُرابِطاتِ وأخلوا سبيلَهن دُونَ سؤالٍ أو جوابٍ.

كانَ الخوفُ يملأُ قلبَ «أفتي» فكيفَ عرَفَ الرّجلُ مكانَها وإلى أيْنَ سيأخُذُها وأينَ أختيْها اللّتين كانتَا معَهَا يومَ ضاعتْ عنهُما ؟


مسجد عمر بن الخطاب
Mosque of Omar

دونَ أيِّ كلامٍ بيْنَهُما مَشتْ «أفتي» وراءَ الرّجُل إلى المنطقةِ القريبةِ منْ المسجدِ الأقصى : بُيوتٌ حجريّةٌ متلاصقةٌ وأدراجٌ هابطةٌ وصاعدةٌ وأبوابٌ وشبابيكُ مقفلةٌ ، وساحاتُ الدُّورِ مُسيَّجةٌ بالحديدِ والشبَكِ ؛

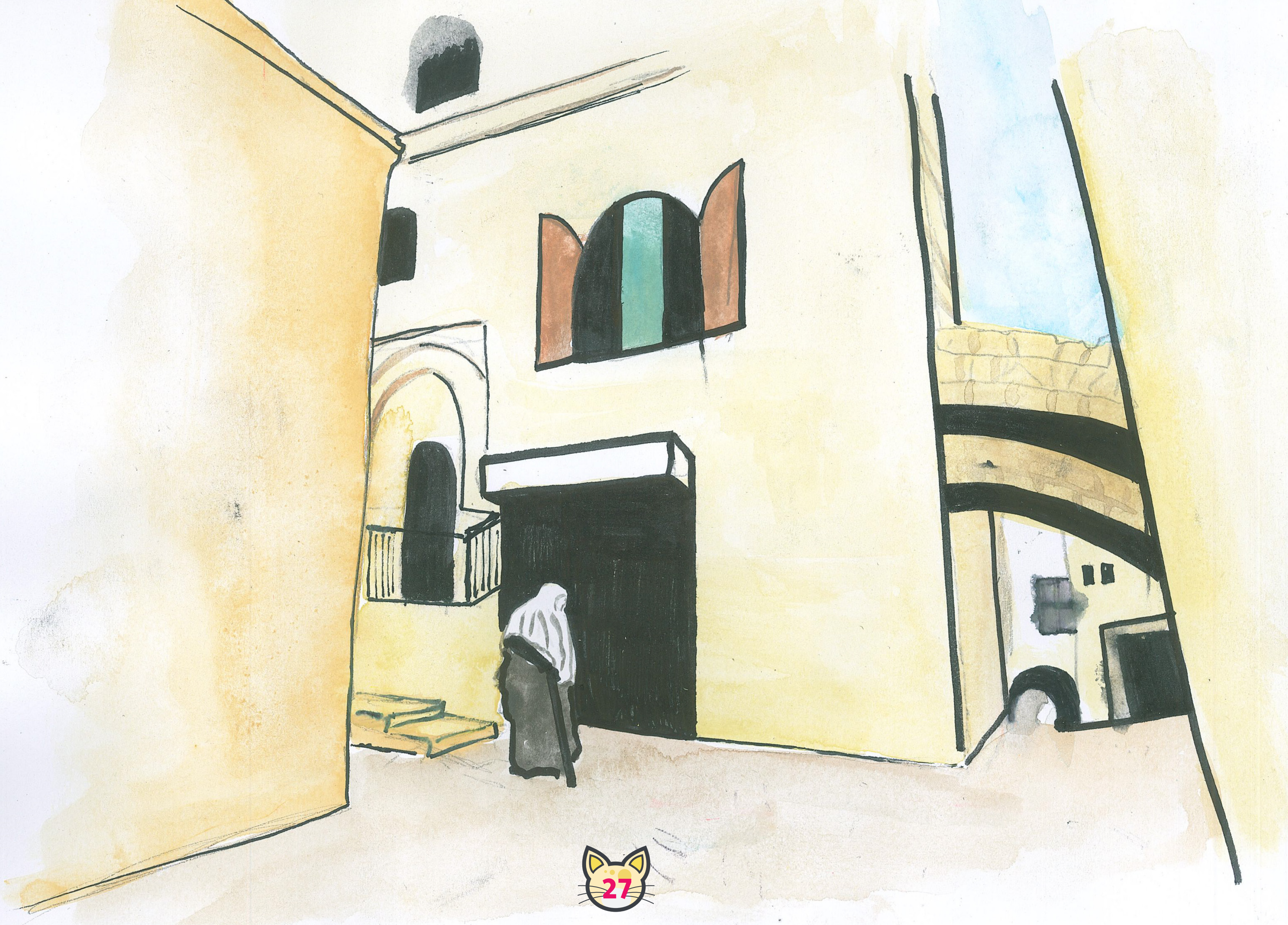
مناظرُ لمْ ترتَحْ لها «أفتي» أبدًا ولكنّها عندما صَعدَتْ الدرجَ الحجريَّ القديمَ للوصولِ إلى البيتِ العالي ؛ تذكرتْ والدَها و والدتَها فقدْ جاءتْ يومًا بعيدًا معهما إلى هذهِ الدار وهذا الدَّرَج ، فاطمأن قلبُها قليلاً .

منَ البابِ أطلّتْ أختاها «إزدي» و «أنجي» وارتفعَ صوتُ صراخِ البناتِ عاليًا وقدْ هجمْنَ على أختِهن يُشبعنَها حَضْنًا وتقبيلاً، ومِن خلفِ البنتيْنِ ظهرَ وجْهٌ عرفتْهُ «أفتي» : إنَّها عمَّتُها «رؤوفة» - أمّ محمّد - التي لمْ ترَها مُنْذ سنين.

وجلسَ الجميعُ في الصالةِ هُمْ يسألونَ وهيَ تُجيبُ ، وهيَ تسألُ وهُم يُجيبونَ... هذِهِ القُدسُ مدينةٌ عجيبةٌ تاريخُها طويلٌ طويل ..وحاضرُها مليْءٌ بالقصصِ والأحداثِ . والصّراعُ مِنْ أجلِها لا يَنْتهي بيْنَ الشعوبِ القريبةِ أو البعيدةِ . وأهلُها صابرونَ صامدونَ يَقولونَ بكلِّ بساطةٍ : « القُدسُ اللهُ حاميها.. هيَ لنا ونحنُ لها : القدس إلنا يعني إلنا »

وعندمَا سألتْ «أفتي» عمتها عن ابنها «محمد» ، غامت الدّموعُ في عيْنيّ العمّة وهيَ تقولُ :

- استشهدَ يا ابنَتِي ، استشهدَ قُربَ المسجدِ الأقْصى ، هلْ سمِعْتم عن موضوعِ «هبَّةِ البواباتِ » ؟ لقد كانَ مع الشباب المرابطين والمرابطات لحماية المسجد الله يرضى عليه .



مَسحَتِ العمّةُ دُموعَها ، وقالتْ :

- هيّا بنا نخرجُ إلى الضوءِ والشمسِ فلا بدّ أنَّ السجنَ أثّرَ بكِ كثيراً يا ابنتي!.

لْم تكدِ البناتُ وعمّتُهنَّ يَخرجْنَ إلى الساحةِ ، حتّى تساقطَت على رُؤوسهِنَّ الحجارةُ والقمامَةُ.. مَشتْ العمَّةُ بكبرياءٍ وقالتْ - لا تخفْنَ ، إنهم هناكَ في الأعلى ، يُضايقوننا كلّ ساعةٍ وكلّ يومٍ.

عرفَتْ «أفتي» سَببَ اقفالِ الشبابيكِ والأبوابِ و عرفَتْ أنَّ الأسوارَ الحديديَّةَ حولَ الساحاتِ ، هيَ لمنعِ حجارةِ و قمامةِ جُنودِ الاحتلالِ والمُستوطنينَ مِنْ إيذاءِ العربِ في بُيوتِهِم ، فهم يُضايقُون أهلَ القدسِ حتّى يُرحّلوهُم عنها و يَحتلّوا كلّ المدينةِ المقدَّسةِ ويَهدِمُوا المسجدَ الأقصى !!

سقَطَ قَلبُها إلى قدميْها وملأ كُرهُ اليهودِ الإسرائيليين المحتلين نفسَها و عقلَها ، وقرَّرَتْ أنْ لا تُغادِرَ القدسَ طيلةَ حياتِها مهما كانتْ رغبةُ هذا الرَّجُلِ أو حتّى أختَيْها بإبْعادِها عنها .

في الفجرِ قامتْ «أفتي» بهدوءٍ توضأتْ و نزلتْ إلى ساحاتِ المسجدِ الأقصى لتُصلّيَ و تَلْتَقِيَ معَ المرابطاتِ اللواتي جئنَ مع أبنائهنّ و أزواجهنّ لإعمارِ المسجدِ بأجسادهِمْ و الصلاةِ فيهِ ، رأت خديجة وزينة وآية فأقبلت تحتضنُهنَّ وتقول باكيةً : أنا معكم وسَأبقى معَكم لحمايةِ المسجدِ الأقصى.

****

تمت

